النقد البنيوي التكويني في مقاربة الطاهر لبيب لشعر الغزل العذري

Formative structural criticism in Taher Labib's approach to the platonic spinning poetry

موشعال فاطمة[1]

[1] جامعة مصطفى اسطمبولي – معسكر (الجزائر)، fatima.mouchaal@ujniv-mascara.dz

تاريخ الاستلام: 2021/04/28 تاريخ القبول: 2021/05/10 تاريخ النشر: 2021/06/01

ملخص:

هدفت هذه الدراسة إلى محاولة الكشف عن الآليات النقدية التي تبنّاها الباحث التونسي الطاهر لبيب في مقاربة الخطاب الشعري، في مدونته الموسومة ب "سوسيولوجيا الغزل العربي، الشعر العذري نموذجا" وهذا وفق آلية نقد النقد، محاولة رصد المنهج الذي اعتمده في مقاربته لشعر الغزل العذري، وكذا استيضاح المرجعية المعرفية التي استند عليها الباحث.

أدرج الباحث مؤلّفه ضمن مشروع نقدي أشمل، تبنّى فيه إجراءات المنهج البنيوي التكويني، موظفا المستويات التالية: مستوى البنية، المستوى الدلالي، رؤية العالم، والمستوى الصوتي.

كلمات مفتاحية: البنيوية التكوينية، الطاهر لبيب، المنهج، الخطاب الشعري، نقد النقد.

Abstract:

This study aims to try to uncover the monetary mechanisms which adopted by the Tunisian researcher "Taher Labib" in the poetic discourse approach in his blog characterized: "sociology of Arab spinning a model platonic poetry", this is according to the mechanisms of critic of criticism. Attempting to monitor the approach he adopted in his approach to the

المؤلف المرسل: موشعال فاطمة .

platonic spinning poetry, as well as clarifying the cognitive reference on which the researcher relied.

The researcher included his book within a more comprehensive critical project, in which he adopted the formative structuralism approach procedures, employing the following levels: The structure level, the semantic level, world vision, and the acoustic level.

Keywords: Formative structuralism; Taher Labib; approach; poetic discourse; critic of criticism.

1. مقدمة:

الطاهر لبيب كاتب وباحث تونسي، أصدر كتابه (سوسيولوجية الغزل العربي، الشعر العذري نموذجا) باللغة الفرنسية عام1972م، وعنوانه الأصلي: La poésie amoureuse des arabes : Le cas des oudrîtes (contribution a une sociologie de la littérature arabe. (1974) ، وقد قام بترجمته الباحث حافظ الجمالي عام1981م بدمشق وأعطاه عنوان (سوسيولوجية الغزل العربي، الشعر العذري نموذجا)، وهو نفس العنوان الذي احتفظ به مصطفى المسناوي في ترجمته للمؤلف سنة1987م، رغم بعده عن العنوان الأصلي، وهذا بناء على رغبة المؤلف الطاهر لبيب، وفي هذه الورقة البحثية اعتمدت ترجمة الباحث مصطفى المسناوي.

تعدّ دراسة الطاهر لبيب من أولى المحاولات الجادّة في النقد المغاربي المعاصر، والتي حاول فيها الباحث تطبيق آليات البنيوية التكوينية على الشعر العربي القديم (الغزل العذري) متجاوزا كافة الاتجاهات النقدية التقليدية، والقارئ المدقق في معظم أجزاء المدونة يشعر بالإعجاب للجهد الذي بذله الطاهر لبيب حين حاول تطبيق المنهج البنيوي التكويني على هذا الخطاب الأدبي، فماهي أهم الآليات النقدية الموظفة في مقاربته لشعر الغزل العذري؟ وما المنهج المتبع؟ وما هي المرجعية المعرفية التي استند عليها؟

2. قراءة نقدية في مدونة (سوسيولوجيا الغزل العربي، الشعر العذري نموذجا):

وضع الباحث هذا المتن النقدي في سياقه الاجتماعي- التاريخي المعاصر له، دارسا علاقة الانعكاس التي ترى أن الاجتماعي يؤثر في الأدبي، للبحث في شعر العذريين الذي قيل أنهم من ذوي العفة بتأثير الإسلام فيهم، معتمدا المنهج المستوحى من مجال علم الاجتماع الأدبي، ولاسيما دراسات لوسيان غولدمان.

قسّم الباحث مؤلفه إلى قسمين، القسم الأول انطلق فيه من تعريفه للشعر "ذلك أن الشعر المسمى عذريا يندرج – من وجهة نظرية شكلية– ضمن بنية لغوية شعرية وذهنية" (لبيب، 1988، صفحة 06)، أما القسم الثاني أظهر فيه تكوين هذه البنية أو تطوّرها.

إن موضوع الباحث هو تحليل الأثر الأدبي من الداخل، ما أدّى به إلى ملاحظة وتدوين رؤية خاصة عن العالم عند جماعة العذريين، وكأنها نواة وعي أو شعور جمعي لمجموعة اجتماعية، مصرّحا في هذا الطرح "بل وحتى إن وضع هذا الأثر في سياق اجتماعي– تاريخي، فإن علاقة الانعكاس تظل هي ذاتها: وذلك أن الاجتماعي يؤثر مباشرة وبالضرورة في الأدبي، ويجعل منه تعبيره الكامل الوضوح والصراحة، ومن هنا يأتي الجانب الوثائقي تمام الوثائقية للتعبير، فكل شيء يتم كما لو أنه ليس ثمة أي انزياح ممكن بين هذا الأخير وبين الواقع الذي يعبر عنه" (لبيب، 1988، صفحة 06)

أشار الباحث – بداية– إلى ملاحظتين حول دراسته:

الأولى: أن القارئ الذي سيلقى هنا مجددا ما هو جوهري من خطوات لوسيان غولدمان حول البنيوية التكوينية، يكون قد عرف مسبقا أن هذه الخطوات جرى تليينها، وذلك لأن الأهمية التي أولاها للسان – منذ البداية– أكبر من تلك التي نجدها عند غولدمان، ومع ذلك فإن النقد الضمني للبنيوية التقليدية اللاتكوينية عادت به إلى فكرة لغولدمان مفادها أن الواقع يقع خارج اللغة، وهي فكرة وضّحها الباحث من خلال توظيفه مصطلح الانزياح.

الثانية: إن ما يلفت النظر، بل ويبعث على الاستغراب ملاحظة الباحث أن دراسات غولدمان (وخاصة مؤلفه الإله الخفي) مثلها مثل دراسته هذه، إذ أفضت إلى هامشية الزمر المدروسة، مصرحا "من قبيل العبث افتراض أن البنيوية التكوينية لا تبحث إلا عن الهامشي، كيفما كان الأثر الأدبي الذي تحاول فهمه وتفسيره" (لبيب، 1988، صفحة 07)

قبل أن يشرع الباحث الطاهر لبيب في تحليله ودراسته للشعر العذري، تطرّق إلى واقع اللغة العربية والجنس، ممثلا – بذلك– ثنائية (الذكورة والأنوثة)، راصدا كل المشتقات المعجمية للثنائية، مستدلا بقصة سيدنا يوسف عليه السلام، باعتباره المثال القرآني المحكم في تجسيد ثنائية الذكورة والأنوثة مع امرأة العزيز.

تحدّث الباحث في هذا الفصل عن (اللغة العربية والجنس) حديثا مضطربا، معتمدا أقوال بعض المستشرقين المناوئين للإسلام أمثال بوسكي (Bousquet) في كتابه (الأخلاق الجنسية في الإسلام)، وسنوك هورغرونجه (S.Hurgronje) الذي كان يرى أنه لا قانون في الإسلام،... وأخذ الباحث عن

هؤلاء المستشرقين أوقعه في المغالطات التاريخية المذكورة في القرآن الكريم، لما عدّ قصة سيدنا يوسف عليه السلام أسطورة.

استعان الباحث في دراسته بآراء ودراسات البلاغيين العرب ومصطلحاتهم النقدية المرتبطة بالبلاغة العربية كالتضمين، المطابقة، التضاد،...مصرحا في هذا الصدد "ولن نبالغ إذا نحن اعتبرنا النقد العربي الكلاسيكي، ذا الطابع البلاغي بالأساس يقوم على انشغال حقيقي لمواجهة العمل الشعري بهذه الدلالة المحايثة للسان، إن تماثل الموضوعات الذي ضاق به المحدثون لم يكن في عمقه غير ضرب من الوفاء العربي لسلطة لسان غني إلى حد أنه يكفي الولوج إليه للوقوع بأعلى صيغة فحسب، بل وعلى سلوك للعيش كذلك" (لبيب، 1988، صفحة 18)

حاول الباحث تطبيق إجراءات المنهج البنيوي التكويني على الخطاب الشعري، موظفا المستويات التالية:

1.2 مستوى البنية::

انتقل الباحث في هذا الباب إلى رصد ما أسماه بثنائية الثبات والتكوين، معرّجا إلى تعريف البنية بقوله "إن مفهوم البنية، كما هو مستخدم هنا، مفهوم بسيط أو مبسّط، إذ المقصود بكلمة بنية هو مجموعة من العناصر الأساسية التي تقوم فيما بينها شبكة من العلاقات المتبادلة بحيث أنه إذا تغيّر أحدها أو زال تغيرت دلالة العناصر الأخرى بصورة موازية، وتتنوع هذه البنية من عمل إلى آخر، كما يمكنها أن تتنوع داخل العمل الواحد" (لبيب، 1988، صفحة 33)، ويلتقي الباحث في تعريفه للبنية مع تعريف يلمسلاف الذي عدّها "كيانا مستقلا من العلاقات الداخلية أو ذات ارتباطات جوانية" (يوسف، 2003، صفحة 219)

اكتفى الباحث في دراسته لمستوى البنية بحصر "بنية شاملة ذات دلالة" (لبيب، 1988، صفحة 33)، مع إبراز بعض البنيات الصغرى الهامة على نحو خاص، منطلقا من مسلمة تقول "إن الإنتاج الشعري الذي نحن بصدده يشكل كلية متماسكة" (لبيب، 1988، صفحة 33)، غير أن الباحث لم يقم باستخراج بنيات لسانية أو بنى جمالية بحتة، بل ربطها ببنى ذات طابع دلالي.

اعتمد الباحث في تحليله على نظرية الانعكاس معتبرا "الأجناس الأدبية فيما بينها الأكثر واقعية، تفضي إلى كون خيالي لا ينبغي البحث عن تطابقه مع التجريبي، بل عن تماثله البنيوي معه" (لبيب، 1988، صفحة 34)، مستدلا بآراء لوسيان غولدمان في تعريفه "هكذا يمكن لكون خيالي، غريب عن

العالم التجريبي تماما في الظاهر كإحدى خرافات الجن مثلا، أن يكون مماثلا كل المماثلة، في بنية لتجربة زمرة اجتماعية بعينها، أو على الأقل، مرتبطا بها بطريقة ذات دلالة، ولم يعد ثمة أي تناقض بين وجود علاقة وثيقة للإبداع الأدبي بالواقع الاجتماعي- التاريخي، وبين أقوى الخيالات المبدعة" (لبيب، 1988، صفحة 35)

انطلق الباحث في تعريفه لنظرية الانعكاس من مبادئ لوكاتش، وهو المؤسس الأول لهذه النظرية والذي اكتفى "بالبحث عن تطابق العالم الواقعي والتجريبي في العالم الأدبي" (عزام، 2003، صفحة 263)، وقد عمد الباحث إلى تحديد مفهوم الانعكاس، أو الفكرة الذائعة عن التأثير الضروري والمباشر للبنية التحتية في إبداع الفكر، والذي ربطه بالمضمون، وقد حصره في:

أ – مضمون الوعي الجمعي.

ب – إن المضمون الأدبي يبدع هو نفسه صورة التعبير الخاص به، أي ارتباطه بالعالم الواقعي، وقد كان الشاعر العربي القديم – حسب الباحث- على بيّنة من هذه الظاهرة.

ج – مشكل التسلسل الزمني للموضوعات.

ربط الباحث تحليله للبنية بالذات مصرحا "وبعبارة أخرى فإن أصلب البنيات لا تجرّد الذات من دورها التاريخي، إلا أنها تملي أو تفرض عليها الكيفية التي تؤكد بها وجودها واتجاهها، وهكذا فإن التفاعل بين البنية والذات يرجعنا إلى الطبيعة التكوينية للبنية، أي إلى الحضور الكامن للصيرورة، ومن ثم إلى دالية السكون الإنساني" (لبيب، 1988، صفحة 49).

وظّف الباحث في هذا الجزء الدراسة التاريخية لتقصي شعر الغزل، انطلاقا من العصر الجاهلي إلى عصر بني أمية، متوصلا إلى أن "الشعر الإسلامي يحمل تعارضات جمالية وإيديولوجية لدى الشعراء المنتمين لنفس الوسط الجغرافي، وهو ليس بالأمر المستغرب، ما دام الفضاء الاجتماعي صار يدرك ويعايش على نحو مختلف: فالصديقان الكوفيان الكميت الشيعي **والطرماح** الخارجي، كانا يمثلان مجموعتين متضادتين لم تعد الصحراء قادرة على الفصل بينهما" (لبيب، 1988، صفحة 52)

قبل تطرّق الباحث للزمرة الشعرية الاجتماعية نظر في العلاقة بين كبرى سمات المذكر المشار إليها في الشعر، وبين بعض أوجه البنية الذهنية للمجتمع العربي، قبل انتشار التصورات الإسلامية، وقد ربط هذا العنصر بالجانب الملحمي، ذلك لأن ما يشكّله الموضوع الملحمي ليس الهدف الذي يضعه الشاعر لنفسه فحسب، لكنه طريقة بلوغ الهدف بوجه خاص، متوصلا إلى أن العقل العربي قبل الإسلام عرف

جملة من الشذرات الأسطورية في تفسيره للعالم، وهذا ما رصده في أبيات شعرية لعنترة بن شداد، تتعلق برحلة جرت في ليلة عامرة بالغول والجن، في قوله: (عنترة، 1966، صفحة 202)

إِذَا كُنْتَ أَنْتَ قَطَعْتَ بِرًّا مُقْفِرًا وَسَلَكْتَهُ تَحْتَ الدُّجَى فِي جَحْفَلِ
فَأَنَا سَرَيْتُ مَعَ الثُّرَيَا مُفْرَدَا لَا مُؤْنِسَ لِي غَيْرَ حَدِّ الْمِنْصَلِ
وَالْغُولُ بُيْنَ يَدَيَّ يَخْفَى تَارَةً وَيَعُودُ يَظْهَرُ مِثْلَ ضَوْءِ الْمِشْعَلِ
بِنَوَاظِرٍ زُرْقٍ وَوَجْهٍ أَسْوَدٍ وَأَظَافِرٍ يُشْبِهْنَ حَدَّ الْمَنْجَلِ
وَالْجِنُّ تَفَرَّقَ حَوْلَ غَابَاتِ الْفَلَا بِهَمَاهِمَ وَدَمَادِمَ لِمْ تَغْفَلِ
وَإِذَا رَأَتْ سَيْفِي تَضِجُّ مَخَافَةٍ كَضَجِيجِ نُوقِ الْحَيِّ حَوْلَ الْمَنْزِلِ

وفي قوله: (عنترة، 1966، صفحة 202)

إِنِّي امْرُؤٌ مِنْ خَيْرِ عَبْسٍ مَنْصَبًا شَطْرِي، وَأَحْمِي سَائِرِي بِالْمِنْصَلِ

حلّل الباحث شعر عنترة على الصعيد النفسي- الاجتماعي، إذ اعتبر أنه "انتقل من شخصية سادية إلى شخصية مازوشية، ففي الزمرة القبلية القائمة على التنافس الملحمي، يتم إبراز العلاقة السادية في المعركة، وهذه ظاهرة بيّنة جدا لدى عنترة، فهو يعرض خصمه باعتباره بطلا كاملا أخلاقيا، وخارقا للعادة جسميا" (لبيب، 1988، صفحة 54)، مركزا على ظاهرة التكرار.

ربط الباحث -أيضا- نقطة التقاء الشعر الجاهلي بالملاحم، فيما يتعلق ببنية الموت، مستدلا بقول زهير بن أبي سلمى: (بلاشير، 1956، صفحة 403)

رَأَيْتُ الْمَنَايَا خَبْطَ عَشْوَاءِ مَنْ تُصِبْ تُمِتْهُ، وَمَنْ تُخْطِئْ يُعَمَّرْ فَيَهْرَمِ

انتقل الباحث إلى التمييز بين الكون الملحمي القبل إسلامي وبين كون المؤمن "وهما كونان ينتقل إليهما تعارض مفهومي بين عالم قائم على تنافس المفاخر الفردية، تسكنه صورة موت يجيب عنه في ذاته ولذاته كي يخفف عن مأساته من جهة، وعالم مغلق مفهوميا (الأمة) وماديا (دار الإسلام) من جهة ثانية، إنه عالم المتماثلين القابلين للعزاء، حيث يبعث الموت في المؤمن من بهجة خالدة" (لبيب، 1988، الصفحات 65-66)

توصّل الباحث إلى أن كل زمرة نتجت عن تعبيرها الخاص، هكذا عارض العذريون تلك القدرة الملحمية القديمة، التي عدل الإسلام بعض عناصرها الأساسية بقدرة الحب المطلقة الموازية لقدرة الله.

2.2 المستوى الدلالي:

حاول الباحث في هذا القسم الذي وسمه ب(الكون العذري) الإبانة عن شبكة الدلالات الباطنية التي توصّل إليها دون قسر النص، وقد حصر هذا المستوى في خمسة فصول معنونة ب: (التعريف- محاولة التجاوز- عقيدة التوحيد والحبيبة الوحيدة - دلالة التماثل - والعفة شعر أم حقيقة؟)، محاولا مساءلة الشعر لا مساءلة الشاعر.

من خلال عرض الباحث للبنية والذات الجماعية والتماثل صاغ تعريفا للعمل الأدبي باعتباره كونا رمزيا تنشئه زمرة اجتماعية يمثّلها المؤلف، ولها موقف مشترك اتجاه هذا الكون الذي ترتبط بنيته بعلاقة تماثل مع بنية عالم الزمرة الواقعي، ويقصد الباحث بلفظة زمرة "نسق من العلاقات ذات الدلالة التي يستند إليها أفراد الزمرة في تأويل علاقتهم مع الآخرين" (لبيب، 1988، صفحة 69)

استفاد الباحث في هذا التعريف من دراسة ماتياس والتز (بضعة تأملات مناهجية تطلبها دراسة الزمر المعقدة بعض الشيء: نظرة مجملة عن سوسيولوجية شعر الغزل في العصر الوسيط)

Mathias Waltz « quelque réflexions méthodologiques suggérées par l' étude des groupe peu complexes : Esquisse d' une sociologie de la poésie amoureuse au moyen –âge »

يختلف تعريف والتز Waltz عن تعريف الطاهر لبيب للعمل الأدبي في نقطتين أساسيتين هما: (لبيب، 1988، صفحة 69)

الأولى: والتز يعتبر الذات الجماعية التي حصرها في الجمهور والمتلقي أصل الإبداع الأدبي.

الثانية: أخذ والتز التماثل بعين الاعتبار، حين يتعلق الأمر بعمل متماسك، خلافا للعمل الأدبي التافه، الذي يستحيل إقامة علاقة تماثل بينه وبين بنية العالم الواقعي للزمرة.

رصد الباحث الرمز العذري بالمضي من العام إلى الخاص، من الطابع الكوني إلى الإيديولوجية العربية الإسلامية، ثم إلى زمرة تاريخية خاصة يكشف عنها على الصعيد النظري ذلك التفاوت القائم بين الشعر والواقع.

استفاد الباحث في هذا الطرح من تعريف لوسيان غولدمان في مؤلفه (الإله الخفي) في قوله "كلما تعلق الأمر ببنية تحتية لفلسفة أو لتيار أدبي أو فني ما، انتهينا إلى جيل أو أمة أو دين ما (...) بل إلى طبقة اجتماعية، وإلى علاقاتها مع المجتمع" (غولدمان، 2010، صفحة 97)

توصّل الباحث إلى أن واقع الكون العذري تم بناؤه داخل هذا العالم المغلق والمتسع في آن بصورة موازية لتشييد كون ديني تقتضي طبيعته أن يظل مفتوحا من الخارج، محاولا تطبيق نظرية التجاوز، مقارنا بين بعض القصص المتعلقة بشعراء الغزل العربي العذري وحكايات أسطورية يونانية قديمة (كحكاية تريستان وإيزوت) مسجلا علاقة تماثل موجودة بينها.

انتقل الباحث إلى رصد الغزل العذري عصر بني أمية، باعتباره جواب زمرة اجتماعية معينة على أسئلة طرحتها بنية اجتماعية جديدة مشبعة إيديولوجيا بتعاليم الإسلام.

سجّل الباحث أن اللغة سابقة عن الذات، أو بعبارة أخرى فإن "الذات الواقعية (وهي العذريون هنا من حيث هم زمرة اجتماعية ملموسة يمثلها الشاعر) تجد نفسها حتما مفصولة عن الكون الذي يصفه النص" (لبيب، 1988، صفحة 87)

استفاد الباحث في هذا الطرح من تعريف ميكائيل ريفاتير باعتبار "الحال أن النص يشوش الواقع فمقاربة القصيدة بالواقع يمثل مقاربة نقدية ذات فعالية مشكوك فيها، وهي تنتهي إلى خلاصات بعيدة عن الموضوع، لأنها تبقى دون النص أو خارجه" (لبيب، 1988، صفحة 87)، كما استفاد من تعريف جان بياجيه الذي عدّ "اللغة تنقل إلى الفرد نسقا جاهزا من المفاهيم والتصنيفات والعلاقات، أي باختصار طاقة لا تنضب من المدلولات التي تنشأ داخل كل فرد" (بياجيه، صفحة 159)

وضع الباحث في دراسته مقارنة بين الشعر العذري وسورة الإخلاص، من خلال علاقة الشاعر بحبيبته، وعلاقة المؤمن بخالقه، من خلال رصد بنى هذه السورة القرآنية، مسجلا – بذلك– الدلالات الباطنية التالية:

أ – الغزل الذي يدور حول امرأة سامية من الناحية الإنسانية يجسد حبها الحياة والموت، متحدثا عن أثر الابتهال في استحضار ذكراها (الإعلاء من صورة المرأة).

ب – أن تكون الحبيبة هي الوحيدة التي ينبغي أن تشغل قلب الشاعر، وهو موضوع الميثاق العذري –على حد تعبير الباحث– كقول جميل بن معمر: (جميل، صفحة 75)

آلَيْتُ لَا أَصْطَفِي بِالْحُبِّ غَيْرَكُمْ حَتَّى أُغَيَّبَ تَحْتَ الرَّمَسِ بِالْقَاعِ

ج – ربط الباحث لفظة (الصمد) بالشعر العذري، وهي مرتبطة بموضوع الفراق المركزي الذي يعذّبه والناجم عن جمود عاطفة الحبيبة، مستدلا بقول كثير عزة: (لبيب، 1988، صفحة 90)

أُرِيدُ صَلَاحَهَا وَتُرِيدُ قَتْلِي وَشَتَّى بَيْنَ قَتْلِي وَالصَّلَاحُ.

د – مقارنة الباحث بين المرأة وحورية الجنة (التي لا تلد).

هـ – محبوبة الشاعر هي ألف المخلوقات وياؤها.

إنّ الفرضية التي انطلق منها الباحث في تحليله لا تقبل فكرة الانعكاس المباشر، والمقارنة التي انتهى إليها الباحث بين وحدانية الإله المعبّر عنها في النص القرآني، وبين تصوّر الحبيبة الوحيدة الخاص بالكون الشعري قد مكّنت من الكشف عن علاقة تماثل بينهما.

عرّج الباحث إلى رصد دلالة التماثل بين الشاعر العذري وعلاقة المؤمن بالإله، معتمدا في هذه المقارنة المعادلات الرياضية في تبسيط هذه العلاقة، كما ربط هذه الدلالة التماثلية للشعر العذري ببيئته.

سار الباحث في هذه المقارنة على خطوات لوسيان غولدمان في مؤلفه (الإله الخفي) في قوله "فهو لا يشكّل شيئا للإنسان من جهة بسبب الله الحاضر الذي يتعارض مع العالم، وهذا يشكل كل شيء من جهة ثانية إذ عندما يكون الله غائبا لا يبقى للإنسان إلا حقيقة وحيدة هي العالم (...) وأما الإنسان فيجمع بين النقيضين المتباعدين: العالم (الحيوان، والشقاء)، والله (الملاك، والعظمة)، ولذا لا يبقى للإنسان موقفا واحدا هو الارتداد من وجوده ومشاركته في العالم إلى الدخول في كنف الله الخفي، وهذا الارتداد لا يتم نتيجة يقين عقلي (لأن اليقين البشري وهمي) وإنما نتيجة حدس نابع من القلب، وهكذا يرى الإنسان نفسه وحيدا في هذا العالم الأعمى" (غولدمان، 2010، صفحة 143)

انتقل الباحث إلى التساؤل عن قضية العفة أكانت شعرا أم حقيقة، راصدا في هذا المسعى علاقة الصورة الأدبية بالواقعي، أي بين التجريبي والممكن، وذلك بإضافة طرف آخر هو الجمهور المتلقي، باعتباره ليس مجرد متلق للرسالة، بل ومرسل لها كذلك، مصرّحا أن "الصورة الأدبية يتم بناؤها انطلاقا من مجموعة من الملامح المختارة عشوائيا من واقع الشاعر ومن واقع جمهوره في نفس الوقت، إنه – إذن– واقع يقلصه الاختيار، ثم يجري تشويهه من قبل طريقة الإدراك والتعبير" (لبيب، 1988، صفحة 109)

عرّج الباحث إلى تحليل المقطوعات الشعرية على مستوى العلامات، مصرّحا أن "الحركات التي أمكننا تتبعها داخل الكون الشعري للعذريين ماضين فيها عبر التعارضات والتفاوتات من العام إلى الخاص، واسعة وحركية بما يكفي لكي تقنعنا بتعقد الظاهرة العذرية من حيث هي واقعة اجتماعية (...) مثل التأثير الوحيد الاتجاه والضروري والمباشر بين الإسلام والتصوّر العذري" (لبيب، 1988، صفحة 126)

ربط الباحث دلالة الشعر بالدلالة النفسية، الاجتماعية، الدينية والتاريخية، أي تتبع مستخلصاتها من دراسة الزمرة الواقعية، وقد أعطى المعنى الأساس للشعر، دون تجاوزه إلى القراءة التأويلية المنفتحة على تعدّد القراءة.

3.2 رؤية العالم:

انتقل الباحث في هذا المستوى إلى معاينة الزمرة الاجتماعية الحقيقية، التي تكون أصلا للكون الشعري، من خلال ربطه بالذات لا الكون الآخر، منتقلا من الفهم إلى التفسير بالمعنى الغولدماني للمصطلحين، والميزة العلمية لهذا النوع من الترتيب هي أنه ينطلق من مجموعة من العناصر المعروفة القابلة للمراقبة والضبط.

أفاد الباحث الطاهر لبيب في هذا المسعى التحليلي من تحليل غولدمان لخواطر باسكال ومسرح راسين، ومن تحليله لمثال (الإله الخفي) الذي ربطه بعلم اجتماع الأدب، وعلاقته بالعالم الميتافيزيقي، إذ يلاحظ غولدمان أن "النتاج الفكري والأدبي في مجتمع ما يجب أن يكون نتيجة لوعي طبقي معين (...) ويرى غولدمان أن خيبة الأمل التي تعرّضت لها هذه الفئة هي التي أدّت إلى تشكيل الإيديولوجيا الجانسينية التي ترفض قيم هذا العالم لأنها مشينة وتتجه نحو الله، مما يجعل الإنسان قلقا دائما، ويشكل عنده حس المأساة، وقد تأثر بهذه الإيديولوجيا أو الرؤية باسكال في (خواطره) وراسين في (مسرحياته) التي قامت على الرفض الكامل لقيم هذا العالم" (عزام، 2003، صفحة 259)، وهكذا يصنف غولدمان مسرحيات راسين في ثلاثة اتجاهات، تبعا لعلاقة أبطالها بالله، بالإنسان، وبالعالم، ويرى أن الفئة أو الطبقة الاجتماعية هي التي تفرز رؤيتها للعالم من خلال وضعها الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، وأن هذه الرؤية تتجلى في الأعمال الأدبية والفنية، وهو ما حاول الباحث الطاهر لبيب تطبيقه على الشعر العذري من خلال موضعه في الزمرة العذرية ضمن سياق عام، هو سياق العصر الثقافي الأموي واجتماعيته وإيديولوجياته.

ربط الباحث الشعر العذري بالسياق، مصرحا "إن زمرة الشعراء العذريين ذاتها قد عاشت –إذن– فترة من الأوضاع المستجدة، وانتشار القيم الإسلامية، والتمجيد العرفي والسياسي للسلالة العربية، والارتقاء إلى نمط جديد من الحياة الاجتماعية– الاقتصادية خاص بالمناطق المتمدنة، يضاف إلى ذلك سلطة ملكية تزداد تجبّرا، كانت إحدى تبعاتها اشتداد التعارض القديم بين البدو والحضر" (لبيب، 1988، صفحة 143)

عرّج الباحث إلى البحث عن تفسير الدور المسند إلى الشخصية العذرية، على مستوى التعالق الرمزي من الوضع الاجتماعي- الاقتصادي والموقف الجنسي، منطلقا من الفرضية القائلة بوجود تماثل بين علاقة الرجل بالمرأة وعلاقة الرجل بالوسط، مصرحا "ضمن هذه البنية الاجتماعية- الاقتصادية الجديدة(...) نما الحب العذري والحب الأيروسي على نحو متواز، وهما استراتيجيتان جنسيتان كانت المرأة فيها مجرد مرادف عاطفي لرأس المال الجديد" (لبيب، 1988، الصفحات 163-164).

استند الباحث في هذا التحليل على آراء رولان بارث الذي كشف لنا أن "السادية قد لا تكون سوى المضمون الفظ (السوقي) لنص ساد" (لبيب، 1988، صفحة 164) وهو نفس الأمر الذي ينطبق على الشعر العذري، إذ يصير "إشباع كل امتداد لجسد مبدأ أيروسي ساد" (لبيب، 1988، صفحة 164)

كما استفاد الباحث في دراسته من آلية رؤية العالم المرتبطة بالسياق وبالفاعل الجمعي، فهي ليست واقعة فردية، بل تكوين جماعي ينتمي بالضرورة إلى فئة (الباحث خصّصه لبني عذرة) وذلك هو السر في الرجوع دوما إلى السياق لأنه "في كل عمل فني بعد اجتماعي (منطلق من الواقع المعيش) وبعد فردي (منطلق من خيال الفنان) ولذا تفترض وجود آخرين غير الفنان، لهم علاقة قراءة أو نظر أو سماع يتوخون من خلالها إيجاد رؤية أو أفق أو حل لمشكلة مشتركة للفنان وجمهوره" (شحيد، 1980، صفحة 38)، وهذا ما طبقه الباحث الطاهر لبيب في مؤلفه، متتبعا خطى لوسيان غولدمان (البنيوية التكوينية)، فرؤيا العالم - حسب غولدمان- تتأسس من الوعي الفعلي القائم المتجسد في الطبقة استنادا إلى واقعها وماضيها على السواء، والمترسب فيها وفي بناها التحتية، والوعي الممكن يتصور على أنه ما يمكن أن تفعله طبقة اجتماعية ما بعد أن تتعرض لمتغيرات مختلفة دون أن تفقد طابعها الطبقي، فكل عمل أدبي "يجسد ويبلور رؤية العالم لدى هذه الطبقة أو تلك ويجعلها تتنقل من الوعي الفعلي الذي بلغته إلى الوعي الممكن ولا يتوفر إلا للكتّاب والمفكرين الكبار دون الصغار منهم الذين يتوقفون عند الوعي الفعلي لدى طبقة ما ويقتصرون على وصفه" (شحيد، 1980، صفحة 41)، ويتم التكامل بين العناصر الثلاثة في دائرة تمثل التفاعل المستمر بينها.

4.2 المستوى الصوتي:

حاول الباحث في هذا المستوى البحث عن شاعرية العذرية، مستفيدا من الدراسات المتقدمة للشعرية، التي استفادت من الطرائق الجديدة للسانيات، كي يعيد بناء البنيات المفهومية والبنيات الصورية

-أيضا- مستعينا بالجداول والتحليل الإحصائي للتركيبات اللفظية والصوتية والمورفولوجية والعروضية والبلاغية، محددا بكثير من الدقة وظيفة الأسلوب الشعري السوسيولوجية، التي عدّها ذلك الانتظار الغائب مستفيدا من آراء رومان جاكبسون الذي أكّد أن "كل لسان يشتمل على عدة أنساق متزامنة يتميز كل منها بوظيفة مختلفة عن وظيفة الآخر"(Jakobsn, 1963, p. 213) .

حاول الباحث في هذا المستوى الجمع بين ماهو جمالي وما هو اجتماعي، وهي العلاقة التي أشار إليها لوكاتش Lukàcs ونجح فيها، كما أنها علاقة وضّحها التماثل الغولدماني، معتبرا هذه العلاقة تقوم على "وظيفة الفن الاجتماعية والسوسيولوجية (...) كيف أن هذه الوظيفة تتغير تبعا لأنماط المجتمعات" (لبيب، 1988، صفحة 170)، متوصلا إلى أن تبادل العقل، بل والتشاكل يقيم علاقة وطيدة بين البنيات اللسانية وبنيات الزمر الاجتماعية.

درس الباحث قضية الشعرية لدى العذريين من خلال رصده لمستويين متعارضين: التحضر/ والبداوة، الالتزام السياسي/ واللامبالاة السياسية، رابطا إياهما بمعطيين أسلوبيين متكاملين ومهيمنين: أولهما نمذجة عروضية ذات تواتر وسيط وثانيهما بلاغية منخفضة نسبيا.

قام الباحث بالتمييز بين نتاج شعراء الحضر والبدو، من ناحية استعمالهم وتوظيفهم للبحور التقليدية، متوصلا إلى أن "إنتاج الحضر يتضمن نسبة مئوية مرتفعة من البحور الغنائية، التي تعادل وتتجاوز في بعض الحالات نسبة البحور التقليدية(...) أما إنتاج البدو فمطبوع بوضوح بالتقلص العددي للبحور الغنائية" (لبيب، 1988، صفحة 173) معتمدا في هذا الجرد الإحصاء والجداول والرموز الرياضية للتمييز بين عدد البحور في قصائد الشعراء العذريين، كتمييزه بين شعر ابن قيس الرقيات وجميل بن معمر وذي الرّمة، مسجلا - بذلك- أكبر نسبة لديوان ابن قيس الرقيات (50%) معتمدا في هذا التحليل والجرد على دراسات البلاغيين العرب القدامى كابن قتيبة (الشعر والشعراء) الذي عدّه من بين وجوه النقد الأدبي البارزين والمعتدلين في نظرتهم، وقد تتبّع الباحث عينة من كتابه -هذا- مثّل بها شعراء الحضر بالأعشى وعمر العرجي، ومثل البدو بذي الرمة والراعي، مسجلا الجدول التالي (لبيب، 1988، صفحة 176):

البحور الشعراء	التقليدية	الغنائية	نسبة الغنائية منها
الحضر	08	06	42.8
البدو	06	02	25
كثير	04	01	20
العذريون	07	01	12.5

ما حاول الباحث رصده في هذا المستوى هو البحث عن الكثافة البلاغية في الشعر العذري، مقارنا بين الشعراء الغزليين في الحضر وشعراء الغزل البدويين، غير أن الباحث لم يفصل هذا التحليل عن الحياة الاجتماعية والسياسية الواقعية.

عني الباحث في هذه الدراسة التطبيقية بالإبانة عن العناصر السياقية لشعر الغزل العذري، اجتماعيا نفسيا، اقتصاديا، وسياسيا وعلاقتها برؤية العالم، غير أنه أفاض في هذا الجانب (السياق) على حساب القراءة الداخلية لبنية النص، إذ اكتفى بإحصاء البحور والتركيز على الجانب البلاغي والدراسات التقليدية للإيقاع، دون حديثه عن البنية الصوتية والإيقاعية والمورفولوجية والتركيبية، والتأويلات الدلالية.

إنّ تركيز الباحث على السياق فوّت عليه فرصة التحليل المنبثق للنص والوقوف على خصائصه الجمالية والفنية، لأن عودة سلطة السياق مشدودا إلى خارج النص فرض عليه رؤية خارجية يصعب حصرها في منحى واحد.

3. في المنهج:

إنّ المنهج الذي وظّفه الباحث الطاهر لبيب هو المنهج البنيوي التكويني، الذي يعود إلى لوسيان غولدمان، إذ سار على خطاه في تحليله (للإله الخفي)، مصرحا "ويرتكز هذا المنهج –المستوحى من الأبحاث التي تمت في مجال علم اجتماع الأدب، وعلى رأسها أعمال لوسيان غولدمان التي انقطعت بموته إلى مبدأ جد بسيط، هو أنه لا ينبغي مساءلة الشاعر، بل مساءلة شعره، ومن ثم فإن موضوعه هو التحليل المحايث للأثر، أي الإبانة عن شبكة من الدلالات الباطنية التي ينبغي الانتهاء إليها دون قسر النص" (لبيب، 1988، صفحة 06)

إنّ دراسة الباحث الطاهر لبيب تندرج ضمن القراءة البنيوية التكوينية، لأنه ركّز على داخل النص وخارجه، وهذا ما تقتضيه طبيعة هذا المنهج من معطيات معرفية، والتي تشكل حيثيات النص من تاريخ وعلم اجتماع وعلم نفس اجتماعي وأنثروبولوجيا...، أي بعامة ما تقدّمه الحقول الإنسانية في نطاق المعرفة، إذ تنظر هذه القراءة إلى الأثر الأدبي دون أن تفصله عن علائقه بالمجتمع والتاريخ، وعن جدلية التفاعل الكامنة وراء استمرار الحياة وتجدّدها، فهي تقوم على مبدأين متلازمين: يتحدد الأول من خلال رؤية نصية داخلية، ويتميز الثاني برؤية سياقية يفضي الجمع بينهما إلى الحقيقة النصية، التي لا تهمل الطابع الجمالي الفني للأثر الأدبي، وإن كان الباحث قد ركز على الجانب السياقي أكثر من العنصر الجمالي الفني.

ارتبطت دراسة الباحث بخمسة أطوار يكمل بعضها بعضا من الناحية المنهجية، هي:

01 – أساس لساني ينقل مجموعة من التصورات والقيم من شأنها أن تحد التعبير الشعري أو توجهه.

02 – بنية شاملة للكون العذري تعاني الشخصية فيها من محن وشقاء، تحب أن تختلقها، وتغدو ضحيتها من الناحية المازوشية، بانتقاله من التنافس الملحمي إلى العالم المتماثل، فالباحث ركز على الجانب النفسي في تحليله للذات.

03 – بنيات صغرى تحدد – من جهة– بعض التعارضات المتناقضة ظاهريا داخل البنية الشاملة، وعلى وجه الخصوص تلك العلاقة القائمة بين الكون الشعري والكون الديني.

إنّ هذه المراحل الثلاث الأولى تمثل "مرحلة أولى هي مرحلة التحليل المحايث للنص" (لبيب، 1988، صفحة 130)

04 – إن المرحلة الرابعة هي المرحلة الأساس – حسب الباحث– بانتقاله إلى بنية الزمرة الاجتماعية العامة، أي تحليله لرؤيا العالم، فإن هذه الرؤيا "التي تكشف بجلاء عن الجانب الوظيفي والدال للأثر تبدّت لنا باعتبارها نواة وعي جمعي لزمرة اجتماعية مشخصة كانت قد عاشت في شروط مادية خاصة" (لبيب، 1988، صفحة 07)

05 – الاستفادة من الطرائق الجديدة للسانيات والدراسات المتقدمة للشعرية، فهي تعيد حسب الباحث بناء البنيات المفهومية والبنيات الصورية أيضا، مستعينا بالتحليل الإحصائي للتركيبات اللفظية، الصوتية، المورفولوجية، العروضية والبلاغية.

حاول الطاهر لبيب أن يقدّم لنا دراسة تحليلية لبنية القصيدة الجاهلية، موضحا التنوع في خطوطها المضمونية وبنية التجربة الإنسانية من جهة، وعلاقتها بمعاينة الواقع من جهة أخرى، محاولا أن يقدم عملا

جديدا من خلال تجاوزه للتفاسير المألوفة للشعر الجاهلي، محللا شعر الغزل العذري تحليلا شاملا من ناحية المستويات اللغوية، النفسية، الاجتماعية والإنسانية، مستعينا برؤية العالم، فقد استخلص من البنيات الشعرية عناصرها الخاصة وسياقها الزمني وقيمتها الدلالية.

ركّز الباحث على التفسير قصد الكشف عن العلاقة القائمة بين بنية القصيدة وبنية الوسط الاجتماعي للشعراء الغزليين، إذ حدّد لنا الخصائص الفنية بدمجها في بنية آلية واسعة، كما تحتل الأبعاد النفسية والاجتماعية مكانا ذا قيمة في بحثه، وهذا بدون شك يفيد النقاد والباحثين ذوي النزعة البنائية الدينامية، لأنه انتقل من مرحلة الشرح إلى مرحلة الشرح والتفسير معا، هذه المرحلة الأخيرة التي تفضي إلى الفهم، وفي تحليل النص الأدبي يتضمّن المنهج البنيوي التكويني مستويين هما: الفهم والشرح، وهما يتكاملان أثناء التحليل الأدبي، فالفهم والتفسير مصطلح يشير إلى "وصف الأثر الأدبي وتصنيف وحداته الداخلية الشكلية والصوتية وتحليل عناصره اللغوية، وتعيين خصائصه الداخلية" (غولدمان، 1986، صفحة 37) فالباحث أدمج العناصر البنائية للقصيدة الغزلية في بنية الوسط الاجتماعي للشاعر، أي اكتشاف طبيعة العلاقة بين القصيدة وبين رؤيا العالم، هذا ما جعل دراسته تبتعد عن الدراسة العلمية التي تتخذ من الإحصاء والأشكال والمعادلات الرياضية معيارا لها، غير أنه سقط في الشروح المسهبة التي غطت أسباب الفهم.

4. خاتمة: من خلال قراءتي لمدونة الطاهر لبيب النقدية أخلص إلى تسجيل النتائج التالية:

01- وضع الباحث الطاهر لبيب مؤلفه هذا في سياقه الاجتماعي- التاريخي المعاصر له، دارسا علاقة الانعكاس التي ترى أن الاجتماعي يؤثر في الأدبي، للبحث في شعر العذريين الذي قيل عنهم إنهم من ذوي العفة بتأثير الإسلام فيهم.

02- أدرج الباحث مؤلّفه ضمن مشروع نقدي أشمل تبنّى فيه إجراءات المنهج البنيوي التكويني، موظفا المستويات الإجرائية التالية: مستوى البنية، المستوى الدلالي، رؤية العالم، والمستوى الصوتي، وقد أفاد من طروحات لوسيان غولدمان .

03- من خلال دراسة مؤلف الطاهر لبيب خاصة والقراءة البنيوية التكوينية عامة اتضح لنا أن انفتاحها على التاريخ وعلم الاجتماع ومقولات المادية الجدلية المتشابكة حوّل آلياتها إلى شروح مسهبة غطّت

أسباب الفهم وطغت عليها، وبنت نتائجها على أحاديث إيديولوجية رسمت نفس مسار القراءة الماركسية من قبل، مغفلة بذلك الجوانب الفنية والجمالية.

5. قائمة المراجع:

– الكتب:

01- أحمد، يوسف، (2003م)، القراءة النسقية سلطة البنية ووهم المحايثة، ج01، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط01.

02- جان، بياجيه، سيكولوجية الذكاء، ترجمة: يولاند إيمانوال، عويدات للنشر والطباعة، بيروت.

03- جميل، بن معمر، الديوان، دار صادر، بيروت.

04- الطاهر، لبيب، (1988م)، سوسيولوجيا الغزل العربي الشعر العذري نموذجا، ترجمة: مصطفى المسناوي، دار الطليعة، بيروت، ط01.

05- لوسيان، غولدمان، (2010م)، الإله الخفي، ترجمة: زبيدة القاضي، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق.

06- لوسيان، غولدمان، (1986م)، البنيوية التكوينية والنقد الأدبي، ترجمة: محمد سيلا، مؤسسة الأبحاث العربية، لبنان، ط02.

07- محمد، عزام، (2003م)، تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحداثية، دراسة في نقد النقد، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق.

08- عنترة، بن شداد، (1966م)، الديوان، دار بيروت، لبنان.

09- ريجيس، بلاشير، (1956م)، تاريخ الأدب العربي، ج02، ترجمة و تحقيق: إبراهيم الكيلاني، دار الفكر، دمشق، ط01.

– المقالات:

01- جمال، شحيد، (نوفمبر 1980م)، البنيوية التكوينية، مجلة عالم المعرفة، المجلد38 (العدد 225)، منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ص ص(85-98).

– المراجع باللغة الأجنبية:

1- Roman, Jkobson (1963), Essai de linguistique génarale, Minuit, Paris.